القراء فى حاجة إلى أن أدلهم على أن « رثاء أحد الشبان لأمه » الذى أورده الأستاذ قطب لا يمكن بحال من الأحوال أن يقارن « بأبى » لأمين مشرق . فرثاء الشاب المذكور لا إيقاع فيه ولا نبل فى الإحساس ولا توفيق فى الاختيار للتفاصيل . وكيف تريد من شاب يؤله من موت أمه أنهم لم يعودوا يعرفون « بأسرة » أن يصل فى فن الكتابة إلى مشرق الذى يذكر « فستانها العتيق » و « يديها اللطيفتين » « ووقع قدميها حول سريره » و « غابة السنديان » وما إلى ذلك من فتات الحياة التى يعرف كبار الشعراء — كما قلت — كيف يلتقطونها بأنامل ورعة فيصلون من التأثير فى نفوسنا إلى ما لا تصل إليه « الأبواق والطبول » .

محمد سرور

تشـــارلز دكنز

مواهبه وخصائص فنه

للأستاذ محمود عزت عرفة

هلم ... بتحفى

كان جمال الطبيعة وفتنة المناظر فى الطريق بين بلدتى شاتهام وجريفسيند مما يملك لب الصغير « تشارلى » ويستثير عنده أدق الأحاسيس بالجمال . وكان أحب شىء عنده أن يقف ويستوقف أباه لدن هذا الصرح الممرد القائم على قمة الربوة ... صرح جادزهيل ؛ حيث كان يربض فيما مضى قاطع الطريق ڤالستاف مع رجال عصابته ليسلب المسافرين والمنقطعين ؛ وحيث تنبسط اليوم على مدى البصر السهولُ الآمنة الخضر والروح الأواهل الفيح .

قال الوالد الفقير المثقل بأعباء الحياة لطفله ذات يوم ، وهو يحاول أن يبعث فى قلبه الصغير بصيصاً من الأمل :

أترى هذا القصر الأنيق يا تشارلى ؟ إنك لتستطيع أن تكون مالكه يوماً ما ، إذا أنت أخذت نفسك منذ اليوم بالجد والدأب ، وسلكت فى حياتك مسلكا ناجحاً شريفاً حتى تنال ما ينبغى لك من الجاه والثراء جميعاً ...

وما من شك فى أن الأب كان يرتاب فى إمكان تحقيق هذا الأمل الذى داعب به مشاعر غلامه ؛ ولكن مشيئة القدر ، وانطواء الزمن تلو الزمن كانا كفيلين بتحقيق هذه الأمنية النفيسة ، فى جملتها وفى تفصيلها . فقد جد تشارلز ودأب ، وسلك فى حياته سبيلاً ناجحاً شريفاً ، ونال الجاه والثراء جميعاً ... ثم امتلك قصر جادزهيل بمروجه ومزارعه ، وقضى فى رحابه أجمل أيام حياته . ولكن لم يتم له ذلك إلا فى أعقاب أربعين سنة كاملة تجرع فيها كؤوس الآلام مترعة دهاقا ...

لم يكن تشارلز من مواليد شاتهام وإنما انتقل إليها مع والده وهو فى الرابعة من عمره ؛ وكان مولده فى لاندپورت بجزيرة پورت سى يوم الجمعة السابع من فبراير عام ١٨١٢ م .

وكان والده — وهو كاتب ببعض خزائن الأسطول — رجلاً ممتلىء النفس بالعطف البالغ على أسرته ، وتلمس أسباب السعادة والنعيم لها ، إلى الحد الذى لا يفى به دخله ، أو تتسع له ذات يده ، فأقبل يستدين ويستدين حتى اضطرب ميزان حياته ، وحتى جنى بهذا التصرف على أسرته أكثر مما أفادها ! ولم تُتح بذلك أدنى فرصة لتشارلز يتلقى فيها من العلم ما يشبع بعض نهمه أو يُروى القليل من غلته

وبلغ العاشرة من عمره دون أن ينتظم فى سلك مدرسة أو يتلقى دروساً بالمعنى المفهوم ؛ ولكنه كان قد لقن من الحياة دروساً نافعات ، واستنبط من الإهمال والجهالة اللذين اكتنفاه علماً ولقانة قل أن أتيحا لغيره ؛ وكان أثر هذه السنوات الست التى قضاها فى شاتهام بالغ الوضوح فى تفكيره وإنتاجه الأدبى فيما بعد . ففيها ثقب فكره وتفتحت مداركه ، وفيها اكتسب دقة فى النظر وقوة فى الملاحظة شعّ سناها على سائر تآليفه ، وفيها عرف من بأساء الحياة وذاق من مرارة العيش ما أجداه ذوقه ومعرفته كثيراً ، وتقلب فى أحضان الفاقة والضر إلى الحد الذى مكّن له من أن يصف ذلك فى رواياته أبلغ الوصف وأصدقه ؛ حتى لأصبح البؤس مادة لفنه والبائسون أبطالاً لقصصه ، يفصح فى التعبير عن أشجانهم ، ويجلّى فى الإبانة عما دق أو عظم من أحداث حياتهم .

من شارلهام الى لندن

انتقل تشارلز وهو فى العاشرة من عمره مع أسرته إلى لندن . وكان الجو من حوله يزداد قتاما ، ومشاكل الأسرة المالية تهدد بقية نعمتها بالزوال ؛ فألحقه قريب له بمخزن لبعض معامل الصباغة لقاء أجر أسبوعى يقل عن ثلاثين قرشاً !

وبدأ تشارلز يتذوق نوعاً من الشقاء لم يألفه من قبل ؛ ولقد كتب مرة يقول وهو يسترجع ذكريات هذه الفترة من حياته : إنى لأعجب كيف كنت مطرحاً منبوذاً بمثل هذه السهولة وفى مثل تلك السن . أعجب كيف أن إنساناً واحداً لم تحركه دواعى الشفقة والرحمة فيرى تدارك ما فات من أمرى بإرسالى إلى أية مدرسة عامة !

... وقبض على والد تشارلز بعد قليل وأُلقى به مع زوجه فى معتقل المدينين ؛ فتقوضت بهذا الحادث دعائم الأسرة الصغيرة ، وقطن تشارلز بالكراء فى بيت عجوز لم تكن لتعنى به فى كثير ولا قليل

ولقد رسم لنا تشارلز فيما بعد صورة صادقة لهذه المرأة فى روايته الموسومة بعنوان : دومبى وولده !

كان فى هذه الفترة من حياته يعتمد على نفسه اعتماداً تاماً ، ولا يكاد يحظى بكلمة عطف من مخلوق ، إذا استثنينا هذه الفترات المتباعدة التى كان يُسمح له فيها بلقاء أبويه

وإن من المؤلم حقاً أن نتصور طفلاً فى الحادية عشرة من عمره يعانى وحده أعباء مثل هذه الحياة الشاقة المريرة ؛ ولكن يبدو أن أباه فى معتقله كان يحاول تسوية مشاكله المالية ، ولم يكن النظام فى معتقلات المدينين يحول بينهم وبين محاولة ذلك ... ويبدو أيضاً أن تشارلز كان يتلقى من عطف أبويه ومن مؤونتهما ما يخفف عنه أعباء المسكن ويعفيه من مؤونة الكسوة . وكان يزورهما فى نهاية كل أسبوع فيقضى بينهما سحابة يوم الأحد سجيناً مختاراً ...

ويصف تشارلز بعد سنين ما ألم به فى هذا الطور من حياته فيقول : لذا أعتمد على نفسى فى تهيئة طعام إفطارى الذى لا يعدو خبزة بلدية بأربعة مليمات وبمثل هذه القيمة لبناً . وكنت أحتفظ بخبزة أخرى مع ثلاث أواق من الجبن فوق رف لى من خزانة خاصة ، ليكون ذلك عشائى عند ما أعود ليلاً . وكان هذا القدر الضرورى من الانفاق يستغرق جانباً كبيراً من شلناتى الستة التى ينبغى أن أعتمد عليها طوال الأسبوع . وأحسب أن أجر المسكن كان يدفعه أبى ، لأنى لم أكن أسأل عنه ألبتة . ولم أكن أتلقى أى مساعدة أخرى كيفما كانت — عدا ملابسى على ما أذكر — من صبيحة الإثنين إلى مساء السبت من كل أسبوع . وما أذكر أنى حظيت من أى مخلوق بأيسر شىء من الترفيه أو الإرشاد أو المونة ، أما أيام الآحاد فكنت أقضيها إلى جانب أبوىّ فى السجن

ولقد طالما تسكعت فى الطرقات والجوع يقض أحشائى ؛ وأعرف أنه لولا رحمة من الله تداركتنى لكان من أيسر الأمور أن أتحول على يد من يريد ، لصاً متمرداً أو عياراً متشرداً ...

انتقل تشارلز بعد حين إلى مسكن قريب من سجن مارشالسى حيث كان هو أول الداخلين من الباب صبيحة كل يوم ، لينعم بلقاء أبويه ويتناول معهما إفطاره ، وكان فى هذا أكبر العزاء لنفسه المحرومة المستوحشة

حياة جديدة

على أن هذه الحياة المؤلمة انتهت عند حد ، وكأن طبيعة دكنز كانت قد صهرت فى بوتقة الآلام إلى القدر الكافى ، وتهيأت لأن تتجلى فى عنصرها الشرق الوضاء ، فها هو ذا والده يغادر السجن وقد سوى مشاكله المالية . وها هو ذا تشارلز يجد نفسه فى الثانية عشرة من عمره تلميذاً بإحدى المدارس بعد أن كان عاملاً فى مخزن صباغة ! واستمر به الحال على ذلك سنتين

وإنه ليصور لنا ، فيما بعد ، هذه الفترة من حياته تحت عنوان (مدرستنا) ويصف لنا شخصياتها وحوادثها وقد استقر عليها غبار ربع قرن كامل من الزمان

... والآن وقد بلغنا تلك المرحلة من حياة دكنز لا نجدنا بحاجة إلى الإطناب فى تتبع بقية المراحل لسبب واضح : ذلك أن خصائص دكنز الأدبية وعناصر تفكيره ، وكل مقومات حياته الفنية إنما تكونت فى هذه الفترة التى ألممنا بها من سيرته ؛ أما ما تلا ذلك من أحداث فهو أشبه شىء بالحاشية تحت المتن ، أو الإطار حول الصورة . ولكن الإشارة إليه مع ذلك أمر